حيـــــاة محمد

باعتباره صاحب الدعوة الاسلامية

للمستشرق الانجليزي توماس أرنولد

ترجمة الأساتذة

عبد الفتاح السرنجاوي — عمر الدسوقي

عبد العزيز عبد المجيد (١)

ويعتبر إسلام عمر فاتحة عصر جديد فى تاريخ الإسلام ، إذ استطاع أتباع الرسول حينئذ أن يجهروا بعقيدتهم . ترك محمد (ص) بيت الأرقم ، وأقام المؤمنون صلواتهم جماعة وإعلاناً حول الكعبة . وبدأ أشراف مكة يتوجسون خيفة من هذه الحال الجديدة ، لأنهم لم يعودوا بعد يناضلون عصابة من الخارجين المضطهدين المنبوذين الذين كانوا يدافعون عن حياة بائسة مستضعفة وإنما يناضلون طائفة أصبحت ذات بأس . تزداد قوتها يوماً بعد يوم بانضمام بعض ذوى السلطان من أهل القبائل ، وتهدد كيان الحكومة القائمة ، بالمعاهدة مع أمير قوى من قبيلة أخرى

لهذا أجمعت قريش أمرها أن تدبر محاولة ناجعة لتعرقل نمو تلك الحركة الجديدة فى مدينتها . تعاقد أهل قريش على مقاطعة بنى هاشم الذين حموا الرسول لما له بهم من صلة القرابة ، واتفقوا على ألا ينكحوا إليهم ، ولا ينكحوهم ، ولا يبيعوهم شيئاً ، ولا يبتاعوا منهم ، ولا تكون بين القبيلتين معاملة ايا كان نوعها . ويقال إن بنى هاشم استمروا مدة ثلاث سنوات لا يغادرون ناحية معينة من مكة ، اللهم إلا خلال الأشهر الحرم التى تمتنع فيها الحروب فى كل الجزيرة ، والتى تعاهد العرب من قبل على الأمن فيها حتى يفد الحجاج لزيارة الكعبة الشريفة مركز دينهم العام

انتهز محمد (ص) الفرص فى أيام الحج ليدعو إلى الإسلام بين القبائل المختلفة التى كانت تفد أفواجاً إلى مكة وإلى الأسواق المجاورة لها . ولكن الرسول لم يوفق لأن عمه أبا لهب كان يقتفى أثره صائحاً بأعلى صوته : « إنه مشعوذ يريد أن يصرفكم عن دين آبائكم إلى العقائد الكاذبة التى جاء بها فتحاشوه ولا تسمعوا له ». فكان الحجاج يعيرون الرسول ويجابهونه بقولهم : « إن أهلك أنفسهم وأقاربك أحق الناس بمعرفتك ، فلم لا يصدقونك إذاً ويتبعونك ؟ » . وأخيراً استفز كل هذا الاضطهاد الذى لحق بمحمد وأتباعه عاطفة جماعات كثيرة من قريش ، فنقضوا عهد المقاطعة .

وفى هذا العام غمر محمداً أشد الحزن والجزع لفقد خديجة زوجه الأمين التى كانت له مشيراً ونصيراً مدة خمس وعشرين سنة . وبعد وفاة خديجة بمدة مات أبو طالب فحرم الرسول (ص) بموته أقوى حام له ، وأثبت مدافع عنه . وبذلك أصبح الرسول مرة أخرى موضع استهزاء الأعداء به ، واحتقارهم له . قاسى محمد (ص) سخرية عشيرته به ، وإعراضهم عنه ، وفشلاً فى رسالته التى ظل يبلغها إليهم مدة عشر سنوات ، فصمم على أن يبحث عن عشائر أخرى لعلها تكون أكثر استعداداً لسماع دعوته ، وعن أرض أخرى خصبة قد تنمو فيها بذور عقيدته ، فخرج مصحوباً بذلك الأمل إلى الطائف ، وهو مكان يبعد سبعين ميلا عن مكة . وهناك أمام جماعة من رؤساء القرية أوضح محمد (ص) دينه المتضمن وحدة الله ، والرسالة التى بعث بها رسولاً للناس ، وتوسل إليهم فى الوقت نفسه أن يحموه ممن اضطهدوه فى مكة . رأي أهل الطائف ألا توافق بين دعوة محمد الطموحة (التى كانت إذ ذاك أسمى من أن يدركها المشركون مثلهم) وبين حال الضعف وقلة الأنصار التى كان فيها ، فذهبوا يحقرونه ويسخرون به يدورمونه بالحجارة فى غير شفقة ، ثم طردوه من ديارهم

غادر محمد الطائف ، وقد ظهرت بوادر النجاح أضعف ما تكون ، فتنفس الصعداء بالعبارة التى تضمنتها الآيات الكريمة التى صدرت على لسان نوح عليه السلام : « قال رب إنى دعوت قومى ليلاً ونهاراً ، فلم يزدهم دعائى إلا فراراً ، وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم ، واستغشوا ثيابهم ، وأصروا واستكبروا استكباراً » .

كانت عادة محمد (ص) خلال موسم الحج السنوى أن يذهب إلى منازل القبائل العربية المختلفة ، ويتحدث إليهم عن الإسلام ، فكان بعضهم يقابل دعوته بالجفاء ، وآخرون يعرضون عنه

(١) انظر العدد ٢٩٦

ساخرين ؛ ولكن عزاءه جاء إليه من حيث لم يتوقع . ذلك أنه قبل شرذمة من ستة نفر أو سبع ، وعرف أنهم قد سمعوا عن المدينة أو يثرب كما كانت تسمى حينئذ ، فسألهم قائلاً : « من أنتم ؟ » قالوا : « نفر من الخزرج » . قال : « أمن موالى اليهود ؟ » . قالوا : « نعم » . قال : « أفلا تجلسون أكلمكم ؟ » . قالوا : « بلى » . فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن . وكان مما صنع الله لهم به فى الإسلام أن يهوداً كانوا معهم فى بلادهم ، وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا قد غزوهم[1] ببلادهم ، فكانوا إذا كان بينهم شىء قالوا لهم : « إن نبيًّا مبعوثاً الآن ، قد أظل زمانه ، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم » . فلما كلم رسول الله (ص) أولئك النفر ، ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض : « يا قوم ، تعلّموا والله إنه للنبى الذى توعدكم به يهود[2] فلا تسبقنكم إليه » . فأجابوه فيما دعاهم إليه ، بأن صدّقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ، وقالوا له : « إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، وعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين . فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك » . ثم انصرفوا عن رسول الله (ص) راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا[3]

هذا هو الخبر المأثور لهذه الحادثة التى تعتبر فجر يوم جديد للدعوة المحمدية . فلقد لاقى محمد قوماً مستعدين لقبول تعاليمه ، قوماً كانت أحوالهم الاجتماعية حينئذ ممهدة لدعوته ، كما سيتضح ذلك فيما بعد

كانت يثرب إذ ذاك مسكونة باليهود منذ زمن طويل ، ويغلب على الظن أنهم أخرجوا من ديارهم على يد الأمبراطور أدريان[4] الذى اضطهدهم [فاستقروا فى مكان يثرب] . ولما وصل بطنا الأوس والخزرج من العرب — فى إحدى انتجاعاتهم للمرعى — إلى يثرب ، سمح لهم اليهود بالإقامة فيها . وبنمو النسل وتكاثر العدد اكتسبوا السلطان من رؤساء اليهود شيئاً فشيئاً ، حتى نجحوا أخيراً ، حوالى منتهى القرن الخامس الميلادى فى احتجان كل السلطان على يثرب

اعتنق بعض العرب اليهودية وظل كثير من رؤساء يثرب اليهود مقيمين بها ، تحت سلطان العرب الغزاة . من أجل هذا نجد عدداً كبيراً من اليهود من ساكنى يثرب ، فى العصر الذى ظهر فيه محمد صلى الله عليه وسلم . كان سكان يثرب لذلك على علم بأمر (المنقذ) الذى توقعوا قدومه ، ونتيجة ذلك أنهم كانوا أكثر قدرة على فهم ما يقول محمد — وهو أنه رسول — وقبوله من أهل مكة الوثنيين الذين كانت فكرة الإسلام لهم غير مألوفة ، كما كانت منبوذة من القرشيين خاصة ، لأن سلطانهم على القبائل الأخرى ، وغناهم المادى ما كانا إلا لأنهم السدنة الورثة لجمهرة أصنام العرب التى نصبوها فى حرم الكعبة

يضاف إلى هذا أن يثرب كانت مشتتة النظام لما حل بها من النزاع الداخلى الذى أشعل ناره شنآن قديم بين الأوس والخزرج. كان السكان دائماً فى اضطراب وقلق ، ولهذا اعتبروا أى عمل يؤدى إلى ائتلاف القبيلتين المتخاصمتين فأل خير وبشرى لمدينتهم

لقد حدث فى القرون الوسطى أن اختار سكان الجمهوريات الشمالية لإيطاليا أجنبياً ليكون الحاكم الأعلى على جميع مدنهم ، حتى يحتفظوا بالتوازن بين قوات الأحزاب المتنافسة ، وحتى يتفادوا — بقدر المستطاع — الخصومات الداخلية التى كانت قاضية على التجارة ، والأمن العام . وشبيه بهذا ما وقع من أهل يثرب ، فإنهم لم ينظروا إلى ظهور أجنبى بينهم بعين التهمة ، حتى حين أدركوا أنه ربما يستغل ما كانوا فيه من انحلال ليكتسب لنفسه سلطاناً عليهم .

إن الواقع ليثبت عكس ما كان يظن ، إذ يظهر أن أحد الأسباب التى جعلت أهل المدينة يرحبون بمحمد (ص) ترحيباً محموداً هو أن العقلاء والمثقفين من السكان قد تبينوا أن اعتناق الإسلام هو العلاج الوحيد للاضطراب الداخلى الذى عانوه مدة من الزمن ، لما جاء به الإسلام من نظم المعاش القويمة ، ومن إخضاع الشهوات الإنسانية الجامحة لتهذيب القوانين الموحى بها من سلطة أعلى وأسمى من سلطة البشر المتقلبة[1] .

(١) عزوهم : غلبوهم وقهروهم

(٢) يعنى قوم يهود

(٣) ابن اسحاق صفحة ٢٨٦ — ٢٨٧

(٤) هو الأمبراطور أدريان الرومانى الذى حكم من سنة ١١٧ م

(١) تاريخ قيطانى . الجزء الأول صفحة ٢٢٤ — ٢٢٥

وتوضح لنا هذه الحقائق كيف استطاع محمد — بعد ثمانية أعوام من الهجرة — أن يرأس جيشاً من أتباعه تبلغ عدته عشرة آلاف نفر ، وأن يدخل المدينة التي جاهد فيها من قبل لينشر دعوته مدة عشر سنين فلم يفلح إلا قليلاً .

لقد تعجلت الحوادث فيما ذكرت الآن . فلنعد إلى بدء عرض محمد نفسه على أهل الخزرج الذين دخلوا في الإسلام أن يصحبهم بنفسه إلى يثرب ، ولكنهم رغبوا إليه في أن يعدل عن ذلك حتى يحدث صلح بينهم وبين بني الأوس . وقالوا : « إننا نتضرع إليك أن تدعنا نعود إلى قومنا لعل الله يخلق السلم بيننا فنرجع إليك بعد ذلك . وموعدنا موسم الحج القادم » .

فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوهم إلى الإسلام ، واستجاب منهم نفر كثير فلم تبق دار إلا وفيها ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم . حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم طائفة من يثرب — عشرة من بني الخزرج واثنان من بني الأوس — فلقوه في المكان المعين ، وبايعوه أن يتبعوا تعاليمه . وهذه هي البيعة الأولى المعروفة ببيعة العقبة ، وسميت بذلك لأنهم اجتمعوا سراً في مكان خفي . وقد أخذوا على أنفسهم « ألا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف . » رجع هؤلاء الإثنا عشرة رجلاً بعد ذلك إلى يثرب مبشرين بالإسلام ، وبذلك مهد السبيل للدين الجديد ، وأقبلوا على نشر الدعوة بحماس ورغبة ، حتى انتشر الإسلام سريعاً من بيت لبيت ، ومن قبيلة لقبيلة

وقد صحبهم في عودتهم إلى يثرب مصعب[1] بن عمير . ويقال في رواية أخرى إن الرسول بعثه إلى أهل يثرب بعد أن كتبوا إليه بذلك . كان ذلك الشاب الناشيء أحد معتنقي الإسلام الأوائل . وكان قد رجع حديثاً من الحبشة ، بعد أن حنكته التجارب هناك ، وأنضجت التنشئة القاسية في ميدان الاضطهاد حماسته ، وعلمته كيف يقابل الاضطهاد ، وكيف يناضل أولئك الذين كانوا متوثبين للحط من شأن الإسلام من غير أن يعلموا شيئاً من تعاليمه الصحيحة . لذلك استطاع محمد (ص) أن يعهد إليه واثقاً القيام بذلك الواجب العسير ، واجب إرشاد حديثي العهد بالإسلام وتعليمهم ، وتنمية بذور الحماس والإخلاص الديني ، التي غرست فيهم من قبل ، حتى تؤتي أكلها طيبة

كان منزل[1] مصعب على أسعد بن زرارة ، وكان يجمع معتنقي الإسلام إليه للصلاة ولقراءة القرآن . يفعل ذلك أحياناً في دار مصعب وأحياناً في دار بني ظفر ، وكانت في ناحية من المدينة يقطنها بطن بني عبد الأشهل وبطن بني ظفر

كان رؤساء بني الأشهل سعد بن معاذ وأسيد بن حضير . وبينما كان مصعب جالساً ذات يوم مع أسعد في دار بني ظفر يعلم طائفة من حديثي العهد بالإسلام . إذ وفد سعد بن معاذ ، وكان يبحث عن مكانهم فقال لأسيد بن حضير : « إنطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا ديارنا ليسفها ضعفاءنا ، فازجرهما وأنههما عن أن يأتيا ديارنا فإنه لولا أن أسعد بن زرارة من حيث قد علمت كفيتك ذلك لأنه كان ابن خالة أسعد . فأخذ سيد بن حضير حربته ثم أقبل على أسعد ومصعب حتى وقف عليهما متشتما وقال « ماذا تفعلان ؟ تسفهان ضعفاءنا ؟ إعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة » . قال له مصعب : « وتجلس فتسمع ، فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره » فركز أسيد حربته وجلس إليهما ليسمع ، فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن . وبعد هنيهة صاح أسيد متهللاً وقال : « كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين ؟ » فأجاب مصعب : « تغتسل فتطهر ، وتشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » فقام أسيد وفعل ذلك ، وكرر الشهادة . ثم قال : « إن ورائي رجلاً (يعني سعد بن معاذ) إن أتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه ، وسأرسله إليكما الآن » . وبعد هذه العبارة انصرف أسيد ، وجاء بعده توأ سعد بن معاذ بنفسه غاضباً حانقاً على أسعد لما منحه مبشري الإسلام من رعاية . فتوسل إليه مصعب ألا يحقرن الدين قبل أن يسمعه . فقبل سعد أن يستمع ، ولم يلبث غير قليل حتى تأثر بما قاله مصعب من العبارات التي أدخلت في قلبه الإيمان فاعتنق الدين وأصبح مسلماً . عاد سعد إلى قومه يلتهب حماساً ، وقال لهم : « يا بني عبد الأشهل ، كيف تعلمون أمري فيكم ؟ » فقالوا : « سيدنا وأفضلنا رأياً ، وأيمننا نقيبة » قال : « فإن كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله محمد » . ومن ذلك اليوم لم يبق في دار بني عبد الأشهل رجل أو امرأة إلا مسلماً أو مسلمة .

عبد العزيز عبد المجيد

(١) هو مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف

(١) أي نزوله